محاضرات مقياس الأدب الصوفي

الأستاذة: لعيدي سليمة

المستوى : السنة الثالثة أدب

الأفواج: 5/6/7/8

المحاضرات المقدمة:

- المحاضرة رقم1: مدخل إلى الأدب الصوفي

- المحاضرة رقم 2: نشأة الأدب الصوفي

|  |
| --- |
| **المحاضرة رقم** 1: **مدخل إلى الأدب الصوفي** |

1. **مفهوم الأدب:**

لقد مرّ مدلول كلمة (أدب) بمراحل متعاقبة خلال رحلة الأدب العربي منذ ظهوره وحتى العصر الحاضر، وذلك تبعا للتطور الفكري والحضاري للأمة العربية:

* ورد في الشعر الجاهلي كلمة (الآداب) بمعنى الداعي إلى الطعام أو من يقدّم الطعام إلى الناس، وكذا المعنى الخلقي من تهذيب النفس وتحلية الخلق باتباع كريم الأخلاق وموروث الشمائل.
* لما جاء الإسلام ترددت الكلمة في كثير من النصوص على لسان النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته بمعنى التعليم والتهذيب الخلقي (قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أدبني ربي فأحسن تأديبي، ربيت في بني سعد)، والتأديب هنا بمعنى التعليم.
* في العصر الأموي: كلمة (أدب) أصبحت تؤدي معنيين، أولهما: المعنى الخلقي التهذيبي المتعلق بالأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة، أما آخرهما: فهو المعنى التعليمي القائم على رواية الشعر والنثر، ومختلف المعارف التي كان يقوم بتدريسها المؤدبون المعلمون.
* وقد بقيت مادة الأدب تدل على المعنيين السابقين منذ القرن الأول الهجري إلى قبيل بداية العصر الحديث أو عصر النهضة وذلك في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي... حتى سمعنا عن أدب الأديان وأدب النفس... وغيرها من المصطلحات، ولمّا كان القرن الثالث الهجري وجدنا مادة الأدب تؤدي المعاني التالية: المعنى الخاص: الشعر والنثر وما يتصل بهما من أخبار وأحكام نقدية، المعنى العام: وهو يتناول المعارف الإنسانية وأنواع الفنون الجميلة ونحو ذلك من كل ما يوسع الثقافة، فأطلق لفظ الأدب على الفنون كما أطلق على جميع ما ترجم من العلوم والفنون إلى العربية في هذه الفترة، وفي القرن الرابع الهجري أضيف إلى المعنى العام العلوم اللازمة لاستكمال ثقافة الأديب والاستعانة بها على إنشاء الأدب وفهمه وتذوقه ونقده كاللغة والنحو والأخبار والنقد.
* استمر الاتساع والضيق بين المفهومين العام والخاص حتى طلعت شمس العصر الحديث بما تحمل من تخصص وتدقيق في شتى مجالات المعرفة الإنسانية، فاختص الأدب لذاته، و صار له مفهوم واضح يعبّر عن مقصده وهدفه ورسالته الإنسانية ويتمثل هذا المفهوم في أنّ الأدب " فنّ الإبانة عما في النفس، والتعبير الجميل عن مكنون الحس، والتصوير الناطق للطبيعة، والتسجيل الصادق لصور الحياة ومظاهر الكون ومشاهد الوجود"، وهو من الفنون التي تعبر عن مظاهر الحياة وخوالج النفس، فيهز المشاعر بجماله وروعته، ولكنه يمتاز بأنّه يجمع بين اللّحن والموسيقى، والفكرة والجمال، فهو يصور ما في النفس من فكرة وعاطفة تصويرا جميلا ثمّ ينقل هذا التصوير إلى نفوس القراء والسامعين، فيؤثر فيهم ويهز خواطرهم ويوقظ مشاعرهم ويعينهم على فهم الحياة ويوجههم إلى أرفع المثل وأنبل الغايات.

1. **مفهوم التصوف:**

**2-1- لغة**:

لفظة (تصوف) مشتقة من الفعل (صوف) وجعله صوفيا، بمعنى تخلق بأخلاق المتعبدين، والصوفية فئة من المتعبدين. قال ابن دريد: " والصوف معروف يقال أخذ بصوفة قفاه إذا أخذ بالشعر السائل في نقرته، وصىوفة: قوم كانوا في الجاهلية يخدمون الكعبة ويجيرون الحاج"، وقال ابن زكريا: " هو الصوف المعروف، وصوفة: قوم في الجاهلية يخدمون الكعبة"، وحكي أبي عبيدة " أنهم أفناء القبائل تجمعوا فتشابكوا كما يتشبك الصوف. ومثل هذا قال الفيروزبادي والأزهري والجوهري. ويوجد دلالة أخرى : صاف السهم وعدل مال، والمضارع منه يصوف ويصيف. ويرى القشيري أن اشتقاق الكلمة من الصفاء بعيد في مقتضى اللغة، أما اشتقاقه من الصوف فهو صحيح من الناحية اللغوية، ولكنهم لم يختصوا بلبسه، فالصفاء محمود بكل لسانه وضده الكدورة مذمومة. وإذا عدنا إلى الاشتقاقات اللغوية لكلمة التصوف نجدها تدل على معاني عديدة، نذكر منها:

* التصوف كلمة مشتقة من صوفيا اليونانية، بمعنى: الحكمة.
* الصفاء وهو القيام لله عزّ وجلّ في كل وقت بشرط الوفاء، فالمتصوف يسعى إلى تطهير وتصفية النفس من مختلف الشوائب المادية والحسية.
* هناك من يربط التصوف باللباس المصنوعة من الصوف الخشن، لأنّ الصوفية كانوا يلبسونها.
* أهل الصفة (وهم فقراء هاجروا إلى مكان (الصفّة) في مسجد المدينة وهو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلّم ) الذين يزهدون في الحياة الدنيا، أي أنّ الصوفية هم أهل صفات قد تميزوا بها من ذالك ابتعادهم عن الدنيا وورعهم و طلبهم الحق تعالى في كل أفعالهم.

**2-2- اصطلاحا:**

تعدّدت تعاريف التصوف وكثرت، وقال بعض الباحثين أنّها تجاوزت ألفا من التعاريف، قال أبو الحسن النوري: " التصوف: الحرية والكرم، وترك التكلّف والتمسك بالسخاء"، وهذا ما أكده الكلاباذي:" الصوفي الذي لا يملك ولا يملك"، يقول الجنيد البغدادي: " التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد في التصوف" وقال سمنون: " التصوف ان لا تملك شيء ولا يملكك شيء"، يقول أبو بكر الشبلي: " الصوفي منقطع عن الخلق متصل بالحق"، وقول الجنيد: " التصوف ان تكون مع الله بلا علاقة"، فهو إذن يعني الصفاء، ومنه الجنيد البغدادي حين قال: " تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم على الشريعة"، وهذا ما عناه سهل بن عبد الله التستري في قوله: " الصوفي من صفا من الكدر، وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله عن البشر..."، والتصوف عند ابن عربي يعني: " الوقوف مع الآداب الشرعية ظاهرا وباطنا وهي الأخلاق الإلهية" أي التوجه الكامل لله تعالى ظاهرا وباطنا مع التزام الأخلاق المثلى في الوجود.

إنّ التعاريف السابقة الذكر تجمع كلها بين معاني الزهد والتقشف وإنكار الذات والانصراف عن الدنيا والتحلي بالأخلاق والقناعة وعبادة الله دون الالتفاف إلى شهوات الدنيا وملذاتها.

من التعاريف الاصطلاحية الأخرى التي تدخل في صميم معاني الأقوال السابقة لمصطلح التصوف نذكر:

* " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح "
* والصوفية هم العاكفون على العبادة، والمنقطعون إلى الله والمعرضون عن زخرف الدنيا وزينتها والزاهدون على ما يقبل عليه عامة الناس من مال وهم المنفردون عن الخلق بالخلوة للعبادة.
* تلك التجربة الروحانية الوجدانية التي يعيشها السالك المسافر إلى ملكوت الحضرة الإلهية والذات الربانية من أجل اللقاء بها وصالا وعشقا، و يمكننا القول أيضا أنه محبة الله والفناء فيه والاتحاد به كشفا وتجليا من أجل الانتشاء بالأنوار الربانية والتمتع بالحضرة القدسية.

وقد قدّم ابن خلدون من خلال مقدمته دلالة واضحة للتصوف تتمثل في الابتعاد عن ملذات الدنيا والخلوة لعبادة الله تعالى، إذ قال: " العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والوهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة والعبادة" .

1. **مفهوم الأدب الصوفي:**

الأدب الصوفي هو الأدب الذي اتجه فيه الصوفي أو الزاهد بمختلف اتجاهاته السنية والفلسفية، يبحث في النفس الإنسانية بعمق فلسفي يسعى لتطهير النفس والروح من حب الدنيا وزينتها وإدخال الطمأنينة إليها، ويطرح في أكمل صوره الفنية التجريدية كوامن النفس من حب وجمال وقيم أخلاقية ومعرفة، وهو الأدب الذي يدعو إلى العبادة والانقطاع إلى الله تعالى.

1. **البدايات الأولى للصوفية:**

يذهب ابن الجوزي إلى أنّ الصوفية من جملة الزهد، كانت بدايتهم بالزهد الكلي منذ البعثة إلى الإسلام، وكان يطلق عليهم اسم (مسلم مؤمن) ثم اسم (زاهد وعابد)، ومن خلال هذا نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد واتّخذوا طريقة تفردوا بها فأطلق عليهم اسم الصوفية، وقد استند ابن الجوزي على نص هام بيّن فيه كلامه عن الصوفية التي أرجعها إلى رجل جاهلي اسمه (الغوث بن مر) وكان يطلق عليه صوفة، وهو أول من انفرد بخدمة الله عند بيت الكعبة، فأصبح هذا الاسم يطلق على من انفرد بخدمة الحق.

1. **مراحل التصوف:**

يمكن تقسيم أطوار التصوف إلى ثلاث مراحل أساسية،

* **مرحلة الزهد**: بدأ التصوف الإسلامي مع مجموعة من الزهاد الذين كانوا يعتكفون المساجد، يقضون حياتهم في عبادة الله، لأنّ الدنيا فانية زائلة بينما الآخرة باقية، فآثروا حياة النسك والزهد والتقشف والورع من أجل نيل مرضاة الله.
* **مرحلة التصوف السني:** سمي كذلك لأنّه كان مبنيا على أحكام الشريعة الإسلامية، حيث يستند المتصوفة السنيون إلى الكتاب والسنة النبوية، ويبتعدون عمّا يغضب الله ( الوقوع في الحرام وارتكاب الذنوب والوقوع في الشهوات وغيرها من المعاصي)، ومن أهم المتصوفة السنيين: الحسن البصري، القشيري...
* **مرحلة التصوف الفلسفي:** تطور التصوف الفلسفي وانتعش في العصر العباسي مع انتشار الفكر الفلسفي والاحتكاك بالثقافات المجاورة، وترجمة الفكر اليوناني إلى اللغة العربية.

|  |
| --- |
| **المحاضرة رقم 2: نشأة الأدب الصوفي** |

1. **ظهور الأدب الصوفي:**

للصوفية أدب غنيّ بما فيه من ذاتية ونزعة وجدانية، ويحمل نفحات قرآنية ونظريات فلسفية خاصة ما تعلق بوحدة الوجود واحتقار المادة، ولقد لجأ المتصوفة إلى الشعر لأنّه أفضل وسيلة للتعبير عن أذواقهم التي لا يمكن للعقل أن يفصح عنها، والشعر الصوفي غزير غزارة النثر الصوفي، فقد خلف الصوفيون تراثا عظيما متنوع المواضيع.

في المراحل الأولى لظهور الشعر الصوفي كان قليلا جدا، أما النثر فقد تميّز بالكثير من الحكم والمواعظ الدينية والأخلاق، والزهد وكثرة العبادة والورع.

كان ظهور الشعر الصوفي في أوائل القرن الثاني الهجري على أيدي الحسن البصري وتلامذته من بعده وأقدم هذا التراث خلفه المتصوفة الأوائل من الشعراء بداية من رابعة العدوية (135ه) وسهل التستري (283ه)، ثم الحلاج والسبلي وأبو زيد البسطامي وغيرهم.

* 1. **مراحل الشعر الصوفي:**

مرّ الشعر الصوفي بمراحل متعاقبة:

* المرحلة الأولى: ويشمل القرن الثاني الهجري والخلافة العباسية في بغداد، وكان الشعر الصوفي عبارة عن لمحات دالة أو أبيات وجيزة، وشعراء هذه المرحلة رابعة العدوية.
* المرحلة الثانية: فتشمل القرنين الثالث والرابع الهجري، وفي هذه الفترة تظهر آثار الاحتكاك بين الجنس العربي بالأجناس الأخرى ( التفكير اللاهوتي، علم الكلام، الفلسفة)، ولم ينته القرن الثالث الهجري حتى أصبح الشعر الصوفي متميّزا يحمل بين طياته منهجا كاملا للتصوف، وقد تطور وازدهر الشعر في هذه الفترة، ومن شعراء هذا العصر أبو تراب عسكر بن الحسين النخشبي، أبو حمزة الخراساني.
* المرحلة الثالثة: شمل القرنين الخامس والسادس هجري، وقد اتجه الشعر الصوفي في هذا العصر إلى الحب الإلهي ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم والشوق إلى الأماكن المقدسة والدعوة إلى الفضائل الإسلامية، وفيها نشأ الأدب الصوفي الفارسي، ومن شعراء هذا العصر السهرودي الشامي.
* المرحلة الرابعة: فشمل القرن السابع الهجري بأكمله، وفيه بلغ الشعر الصوفي قمة تطوره ونضجه، ومن أعلامه: ابن الفارض وغيرهم.
* المرحلة الخامسة: فقد شملت القرن الثامن حتى اليوم، ومن أعلامه الشعراني وغيرهم.

لم يظهر الشعر الصوفي إلا بعد شعر الزهد الذي اشتهر به أبو العتاهية، وكذلك بعد شعر المديح النبوي وانتشار التنسك بين صفوف العلماء والأدباء والفقهاء كإبراهيم بن أدهم وداود الطائي ورابعة العدوية والفضيل بن عياض وغيرهم

وقد اشتهر كثير من الصوفية في العصر العباسي كالسري السقطي، والحسين بن منصور الشهور باسم الحلاج، والحسن بن بشر، وابن العربي، وابن الفارض، والشريف الرضي، ويحي بن معاذ... ومن أصول التصوف عندهم:

* التوبة
* التمسك بكتاب الله تعالى
* الاقتداء بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
* اجتناب المآثم...
  1. **مميّزات الأدب الصوفي القديم:**
* التأثر بالشريعة الإسلامية:
* استعمال الرمزية
* الخضوع لإرادة الله القوية
* الخيال
* السمو الروحي

1. **نماذج شعرية من الأدب الصوفي:**

من الشعراء الذين مالوا إلى الصوفية رابعة العدوية، وهي شاعرة فلسفة الحب، لأنها حصرت حياتها في حب الذات الربانية:

أحبك حبين: حب الهوى وحبا لأنّك أهل لذاكا

فأما الذي هو حب الهوى فشغل بذكرك عمن سواكا

وأما الذي أنت أهل لـــــــــــــــــــــه فكشفك لي الحجب حتى أراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

* واعتبر ذو النون القرآن الكريم محرك القلوب والهمم والوجدان الروحي من خلال قوله:

منع القرآن بوعده ووعيده مقل العيون بليلها أن تهجعا

فهموا عن الملك الكريم كلامه فهما تذل له الرقاب وتخضعا

* ومن الشعراء الذين تغنوا بفكرة الفناء والمحبة الإلهية الشاعر الصوفي أبو علي الروذباري:

روحي إليك بكلها قد أجمعت لو أن فيها هلكها ما أقلعت

تبكي عليك بكلها من كلها حتى يقال من البكاء تقطعت

* يعد الحلاج من كبار الصوفية الذين تغنوا بالذات الربانية، وقد استطاع أن يبرهن على وجود الله من خلال المحبة الروحانية، من خلال قوله:

لم يبق بيني وبين الحق اثنان ولا دليل بآيات وبرهان

هذا وجودي وتصريحي ومعتقدي هذا توحد توحيدي وإيماني

1. **الهدف من دراسة الأدب الصوفي:**

إنّ التصوف أصبح اليوم قانونا مفيدا لتحقيق التوازن في الحياة، ومنهاجا محتما لتسديد القيم والسلوك، وشريعة تستطيع برسالتها أن توجد الحلول الناجعة للمشاكل التي تعاني منها المجتمعات الإنسانية، ويمكن تلخيص بعض الأهداف من دراسة الأدب الصوفي:

* الأدب الصوفي مصدر من مصادر التربية الخلقية الذي ينبغي أن يدرج في الأطوار التعليمية، لأنّ المتصوفة سجّلوا أخلاقهم في نصوص وما يروى عنهم من أخبار.
* يجسد الأدب الصوفي حقيقة التدين الصحيح، فلا حقد ولا عداء ولا حسد ولا بغضاء ولا كراهية، إذ يقوم بتهيئة النفس لملاقاة ربها.
* إنّ التصوف يعد جامعة شعبية تجمع مكونات الثقافة الإسلامية ومختلف شرائح المجتمع الإسلامي، فالفلاسفة والحكماء والمتكلمون والمفسرون وأهل الفقاهة وأرباب الأدب والشعر وسائر طبقات الناس، يستطيع التصوف أن يمدهم بنور الهداية في حياتهم وهدفا حقيقيا لوجودهم.

**المراجع:**

* قضية التصوف، عبد الحليم محمود.
* القضايا النقدية في النثر الصوفي، وضحى يونس.
* عقيدة الصوفية، أحمد بن عبد العزير القصير.
* الأدب في التراث الصوفي، محمد عبد المنعم خفاجي.